سلسلة المقالات
الفقهية الأصولية
(٦٨)

ضَوَابِطُ الدَّفْعِ ومَوَانِعُ الصَّدِّ
تَأَمُّلاتٌ في الدَّعْوَةِ إلى اللَّه
على بَصِيْرَةٍ

وَقَّعَه

الدكتور عيد أبو السعود الكيال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيّ بعده ﷺ أمَّا بعد:

فهذه كلمات وجيزة في بيان الدفع والصدّ لغةً وشرعًا، وتأثيرهما في صلاح الديانة:

فقد قال الإمام اللغويّ الرَّاغب الأصفهاني في: «المفردات في غريب القرآن» (ص: ١٧٠):

«الدَّفع إذا عُدِّيَ بإلِيَ اقتضىٰ معنىٰ الإنالة، نحو قوله تعالىٰ: ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النساء: ٦]، وإذا عُدِّيَ بعن اقتضىٰ معنىٰ الحماية نحو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج: ٣٨]، وقال: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقوله: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ٢، ٣]؛ أي: حام، والمَدْفع الذي يدفعه كُلّ أحدٍ، والدَّفعة من المطر، والدّفاع من السبيل». اهـ.

وقال الإمام ابن فارس في: «مقاييس اللغة» (٢/ ٢٨٨):

«(دفع): الدال والفاء والعين أصل واحد مشهور؛ يدلُّ علىٰ تنحية الشَّيْء، يقال دفعت الشيْء أدْفعه دفعًا، ودافع اللَّه عنه السوء دِفاعًا . . . وإمَّا الدُّفّاع: فالسيل العظيم، وكل ذلك مشتق من أنَّ بعضه يدفع بعضًا.

والمُدَفِّع: البعير الكريم، وهو الذي كلما جِيءَ به ليُحمل عليه أُخِّر وجِيءَ بغيره إكرامًا له، وهو في قول حُميد:

وقرِّبن للتَّرْحال كُلَّ مُدَفِّعٍ». اهـ.

هذا ما كان في معنىٰ الدّفع، أمَا بيان الصدّ.

فقال الراغب في: «المفردات» (ص: ٢٧٥- ٢٧٦):

«صدد: الصدود والصَّدد قد يكون انصرافًا عن الشيْء وامتناعًا، نحو قوله تعالىٰ: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، وقد يكون صرفًا ومنعًا، نحو ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٤٥]، وقوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٨٧] إلىٰ غير ذلك من الآيات.

وقيل: صدّ يَصُدّ صدودًا، وصد يَصُدّ صدًّا، والصدّ من الجبل ما يَحُولُ، والصديد: ما حال بين اللحم والجلد من القيح، وضرب اللّه مثلًا لِمُطْعم أهل النَّار: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦]». اهـ.

وقال ابن فارس في: «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٢٨٢):

«الصاد والدَّال معظم بابه يَؤول إلىٰ إعراض وعُدُول، ويجيء بعد ذلك كلماتٌ تَشِدّ فالصَّدُّ: الإعراض: يُقال: صدَّ يصُد، وهو ميل إلىٰ أحد الجانبين، ثُمَّ يقول: صددت فلانًا عن الأمر إذا عَدَلْتَه عنه، والصدَّان: جانِبا الوادي، الواحد: صدٌّ، والصديد: الدَّم المختلط بالقَيْح، يُقال منه أَصَدَّ الجُرْح». اهـ.

هذا ما كان من بنْية الكلمتين لغةً، والقاعدة الكلية: «**العبرة في العقودِ بالمقاصد والمعاني، لا بالألفاظ والمباني**»، وهذه القاعدة تنقلنا إلىٰ بيان هاتين الكلمتين في الكتاب والسُّنَّة فقهًا وشرعًا وفهمًا.

قال اللّه تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ

وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩- ٤١].

قال شيخ المفسّرين ابن جرير الطبري في: «جامع البيان في تأويل آي القرآن» (٢/ ٧٠٨- ٧٠٩):

«يعني تعالىٰ ذكره بذلك: ولولا أنَّ اللَّه يدفع ببعض النَّاس، وهم أهل الطاعة له والإيمان به، بعضًا وهم أهل المعصية للَّه والشرك به، كما دفع عن المتخلّفين عن طالوت يوم جالوت ﴿لَفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾؛ يعني: لهلك أهلها بعقوبة اللَّه إيَّاهم، ففسدت بذلك الأرض، ولكنّ اللَّه ذو مَنٍّ علىٰ خلقه وتطوّل عليهم بدفعه بالبَرِّ من خلقه عن الفاجر، وبالمطيع عن العاصي منهم.

وهذه الآية إعلام من اللَّه تعالىٰ ذكره أهل النفاق الذين كانوا علىٰ عهد رسول اللَّه ﷺ المتخلفين عن مشاهِدِه للشك الذي في نفوسهم ومرض قلوبهم، وأنه يدفع عنهم بإيمان المؤمنين به وبِرسوله، الذين هم أهل البصائر والجد في أمر اللَّه، وذوو اليقين بإنجاز اللَّه إياهم وعده من النصر العاجل والفوز بجنّاته في الآخرة، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل:

[٥٦٠١] حدثني ..... عن مجاهد في قول اللَّه: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ يقول: ولولا دفع اللَّه بالبارّ عن الفاجر، ودفعه ببقية أخلاق النَّاس بعضهم عن بعض لفسدت الأرض بهلاك أهلها.

[٥٦٠٣] حدثنا .... عن أبي مسلم قال: سمعت عليًّا يقول: لولا بقية من المسلمين فيكم لهلكتم.

• وأمَّا القُرَّاء فإنها اختلفت في قراءة قوله: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾، فقرأته جماعة من القراء: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ﴾؛ علىٰ وجه المصدر، من

قول القائل: دفع اللَّه عن خلقه، فهو يدفع دفعًا؛ واحْتجَّت لاختيارها ذلك: بأنَّ اللَّه تعالىٰ ذكره هو المنفرد بالدّفع عن خلقه، ولا أحد يُدافعه فيغالبه، وقرأت ذلك جماعة أُخَرُ من القُرّاء: «**ولولا دفاع اللَّه النَّاس**» علىٰ وجه المصدر من قول القائل: دافع اللَّه عن خلقه، فهو يدافع مدافعة ودفاعًا؛ واحتجّت لاختيارها ذلك: بأنَّ كثيرًا من خلقه يعادون أهل دين اللَّه، وولايته والمؤمنين به، فهو بمحاربتهم إيَّاهم ومعاداتهم لهم للَّه مدافعون بباطلهم، ومغالبون بجهلهم، واللَّه مدافعهم عن أوليائه وأهل طاعته والإيمان به، والقول في ذلك عندي أنهما قراءتان قد قرأت بهما القرَّاء، وجاءت بهما جماعة الأمّة، وليس في القراءة بأحد الحرفين إحالة معنىٰ الآخر؛ وذلك أنَّ من دافع غيره عن شيء، فمدافعه عنه بشيْء دافع، ومتىٰ امتنع المدفوع عن الاندفاع، فهو لمدافعه مدافع، ولا شك أنَّ جالوت وجنوده كانوا بقتالهم طالوت وجنوده، محاولين مغالبة حزب اللَّه وجنده، وكان في محاولتهم ذلك محاولة مغالبة للَّه ودفاعه عمَّا قد تضمَّن لهم من النّصرة، وذلك هو معنىٰ مدافعة اللَّه عن الذين دافع اللَّه عنهم بمن قاتل جالوت وجنوده من أوليائه، فتبيَّن أنَّ سواء قراءة من قرأ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾، وقراءة من قرأ: «**ولولا دفاع اللَّه النَّاس بعضهم ببعض**»، في التأويل والمعنىٰ واحد». اهـ.

- وقال الحافظ ابن كثير في: «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٤٤٠):

«قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾؛ أي: لولاه يدفع عن قوم بآخرين، كما دفع عن ببني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

وقال ابن جرير [في تفسيره (٥٦٠٥) كما في النقل السابق وأجلْته إلىٰ هنا]: حدثني . . . عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إنَّ اللَّه ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء**» ثُمَّ قرأ ابن عمر: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ

﴿ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾، وهذا إسناد ضعيف، فإنَّ يحيىٰ بن سعيد هذا هو أبو زكريا العطار وهو ضعيف جدًّا [قلت: وهو يدخل في قول الترمذي: «حديث ضعيف وعليه العمل»].

ثُمَّ قال ابن جرير [في «تفسيره» بسنده (٥٦٠٦)] حدثنا .... عن جابر بن عبد اللَّه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إنَّ اللَّه ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله، ولا يزالون في حفظ من اللَّه ﷻ ما دام فيهم**»، وهذا أيضًا غريب ضعيف لما تقدم أيضًا [قلت: رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (**٣٦٥٦٤**) عن محمد بن المتكدر موقوفًا].

وقال أبو بكر بن مردوية: حدثنا .... عن ثوبان -رفع الحديث- [إلىٰ رسول اللَّه ﷺ] قال: «**لا يزال فيكم سبعة بهم تُنْصرون وبهم تمطرون وبهم ترزقون حتىٰ يأتي أمر اللَّه**» [رواه عبد الرزَّاق في «المصنف» (**٢٠٤٥٧**) عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة من مرسلًا].

وقال ابن مردوية أيضًا: حدثنا .... عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**الأبدال في امّتي ثلاثون، بهم تقوم الأرض، وبهم تمطرون وبهم تنصرون**» قال قتادة: إني لأرجو أن يكون الحسن البصري منهم [رواه الطبراني في «المعجم الكبير»، قال الهيثمي في: «مجمع الزوائد» (**١٠/ ٦٣**): «رواه الطبرانيّ من طريق عمرو والبزّار عن عنبسة الخوَّاص وكلاهما لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح». اهـ، قاله محقق التفسير لابن كثير].

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: منّ عليهم رحمةً بهم، يدفع عنهم ببعضهم بعضًا، وله الحكم والحكمة والحجّة في جميع أقواله وأفعاله». اهـ.

• **قلت: ثُمَّ زاد القرطبيّ في: «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ١٩٧- ١٩٩) الكلام تفصيلًا في آية سورة البقرة فقال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

«واختلف العلماء في النَّاس المدفوع بهم الفساد من هم؟ فقيل: هم الأبدال، وهم أربعون رجلًا كُلّما مات واحد بدَّل اللَّه آخرَ، فإذا كان عند القيامة ماتوا جميعًا، اثنان وعشرون منهم بالشام وثمانية عشرة بالعراق.

وخرج الحكيم الترمذي في: «نوادر الأصول» عن أبي الدرداء قال:

«إنَّ الأنبياء كانوا أوتاد الأرض، فلمَّا انقطعت النبوّة أبدل اللَّه مكانهم قومًا من أمة محمد ﷺ يُقال لهم: الأبدال، لم يفضلوا النَّاس بكثرة صوم ولا صلاة؛ ولكن بحسن الخلق، وصدق الورع، وحسن النيّة، وسلامة القلوب لجميع المسلمين، والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة اللَّه؛ بصبر، وحلم، ولبّ، وتواضَع في غير مذلّة، فهم خلفاء الأنبياء، قوم اصطفاهم اللَّه لنفسه، واستخلصهم بعلمه لنفسه، وهم أربعون صِدّيقًا، منهم ثلاثون رجلًا علىٰ مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن، يدفع اللَّه بهم المكاره عن أهل الأرض، والبلايا عن النَّاس، وبهم يُمطرون ويرزقون، لا يموت الرجل منهم حتىٰ يكون اللَّه قد أنشأ من يخْلفه»، وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ولولا دفع اللَّه العدو بجنود المسلمين؛ لغلب المشركون فقتلوا المؤمنين، وخرَّبوا البلاد والمساجد.

وقال سفيان الثوريّ: هم الشهود الذين تُسْتَخْرَجُ بهم الحقوق.

وحكَىٰ مكّيٌّ أنَّ أكثر المفسّرين علىٰ أنَّ المعنىٰ: لولا أنَّ اللَّه يدفع بمن يصلِّي وبمن يتّقي عمّن لا يتقي لأهلك بذنوبهم، وكذا ذكره النَّحاس والثّعلبيّ أيضًا.

قال الثعلبيّ: وقال سائر المفسّرين: ولولا دفاع اللَّه المؤمنين الأبرار عن الفجار والكفار لفسدت الأرض؛ أي: هلكت.

وقيل: هذا الدّفع بما شرع اللَّه علىٰ ألسنة الرُّسل من الشرائع، ولولا ذلك

لتسالب النَّاس وتناهبوا وهلكوا، وهذا قول حسن؛ فإنّه عموم في الكفّ والدّفع وغير ذلك فتأمّله». اهـ.

- **خاتمة المقالة وبيان خطورة الأمور وجسامتها:**

قلت: وما قاله الإمام الفقيه الأصولي المفسّر عموم كُلِّي لمعنىٰ الآية وشمولها لكل الدفوع التي جمعتها الآيات القرآنية والأحاديث وإجماع المسلمين، وإنَّما كان قوله هو الأرجح، للضرورة الكلِّيّة للتقعيد العلمي والتأصيل الإدراكي الفَهْمِيّ لمراد اللَّه ورسوله من القرآن والسُّنَّة، ومعرفة دعائم المقاصد الشرعَية التي بها يُفْهَمُ هذا الدين وتعلم شعائره وأركانه وأسسه الاستنباطية؛ علىٰ وَفْق وضوء التقعيد العام لمسائل الشَّريعة.

ووجه ذلك القول: بأنَّ الأبدال الواردة في الأحاديث -وإن ضعفت من ناحية السند- فالمراد بها القول الأخير الذي ذكره القرطبيّ، والذي مفاده: إنَّما يكون الدفع بما يقوم به العلماء الربّانيّون العاملون المعلمون، الذين يعلمون مراد اللَّه ورسوله ويعلمون مقاصد الدين والشريعة، بما علموه من شرع اللَّه علىٰ ألسنة الرُّسل، التي خُتمت بشريعة محمد ﷺ، القرآن والسُّنَّة وإجماع الصالحين سلفًا وخلفًا.

وعليه، فلا يتم الدفع المستقيم، والكف القويم، عن الصدّ اللئيم عن سبيل اللَّه ورسوله، إلَّا بالعلم، والفهم، والوعْي، والإدراك، لكتاب اللَّه وسنّة نبيّه ﷺ قولًا وفعلًا ونيّة ومعتقدًا واتباعًا للسُّنَّة المطهّرة من كل خلل ونقص وعيب، والسَّيْر بالعباد والبلاد بمثل ما كان عليه النَّبيّ ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

ولقد جمع اللَّه في آية جليلة تكشف وتبيّن وتوضّح ما يُحاك بهذه الأمة من المكايد والفتن والبلايا؛ حتىٰ تصبح هذه الأمة علىٰ سُبل الأهواء والشهوات فقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وشهد شاهد من أهلها، وهذا هو همّهم الأعظم والرئيس، وإن اختلفت أشكاله وأنواعه وصوره، وقال سبحانه: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، وقال ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]، وذلك مع قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٦ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٦، ٣٧].

فإذا كان ذلك كذلك، فكل من صدّ عن سبيل اللَّه بكل شكل من أشكال الصدّ وضروبه المتنوعة، سواءً كان الصد من المسلمين الموحدين وهو الأخطر والأعظم ضررًا، أو من غيرهم، فهو رغبة منهم لهدم الدين ونقض عراه، وقد يكون ذلك ممَّن ينتسبون إلىٰ الدعوة إلىٰ اللَّه بصيرة!!! وليس ثَمَّ إلَّا الأهواء والشهوات، وهذا هو الأمر الجسيم والخطب العظيم، إلَّا ما رحم ربِّي، فينجِّي برحمته من يشاء.

وأصل المسألة: غياب الوعي، والفهم، والإدراك، وصحة التصور، فغياب هذه الكليات المقاصدية تؤول بالإمة إلىٰ الحضيض الأوهد، كيف؟!، وقد علم القاصي والداني في شتَّىٰ أنحاء المعمورة، ما كان من أمر وباء الكورونا، وشتَّىٰ ما حدث للعالم أجمع من الخراب والدمار من هلاك اقتصادي، وسياسي، واجتماعي، وعلميّ ومادي، ودنيوي، وديني، ودعوي، وحدِّث ولا حرج، فلابد من النظر والاعتبار للأسباب والعلل والشروط والموانع، لما كان وما سيكون، وما سيحدث من عواقب الأمور والشؤون، فإنَّ غياب الفهم يؤدي حتمًا إلىٰ العجر عن المعالجة والإصلاح ومعرفة الحلول، وتدارك النقص والآفات

والأمراض المزمنة فكرًا وعقلًا ومعتقدًا، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

- **وما أجمل ما قاله الفقيه الأصولي المفسّر أبو عبد اللَّه القرطبي في: «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ١٩٥) وهو يفسر آيات سورة البقرة رقم (٢٤٩):**

«قلت: هكذا يجب علينا نحن أن نفعل! لكنَّ الأعمال القبيحة والنِيَّات الفاسدة منعت من ذلك، حتىٰ ينكسر العدد الكبير منَّا قدَّام اليسير من العدو ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وذلك كما شاهداه غير مرّة، وذلك بما كسبت أيدينا! وفي البخاري [في «صحيحه» (٢٨٩٦) باب (٧٦) من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب] بلفظ قال رسول اللَّه ﷺ: «**هل تنصرون إلَّا بضعفائكم**»، وقال أبو درداء: إنَّما تقاتلون بأعمالكم، وفيه مسند إلىٰ النَّبِيّ ﷺ قال: «**هل ترزقون وتنصرون إلَّا بضعفائكم**»؟!.

فالأعمال فاسدة، والضعفاء مُهْمَلون، والصبر قليل، والاعتماد ضعيف، والتقوىٰ زائلة!، قال تعالىٰ: ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟﴾ [المائدة: ٢٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

[**قال القرطبيّ:**] فهذه أسباب النّصر وشروطه، وهي معدومة عندنا، غيره موجودة فينا، فإنَّا للَّه وإنَّا إليه راجعون علىٰ ما أصابنا وحلَّ بنا! بل لم يبق من الإسلام إلَّا ذكره، ولا من الدين إلَّا رسمه، لظهور الفساد، ولكثرة الطغيان،

وقلة الرشاد؛ حتىٰ استولىٰ العدو شرقًا وغربًا برًّا وبحرًا، فعمَّت الفتن، وعظمت المحَن، ولا عاصم إلَّا من رحم!.». اهـ.

• النّجاة والمناص والخلاص:

قلت: وخلاصة ما أروم إليه من منظور التفقّه الاستنباطيّ المستقيم علىٰ الفهم المقاصدي الشرعيّ: الإدلال علىٰ السبب والغاية التي تُحقق المناط وتُنَقّحُهُ بعد تخريجه، لبيان منظومة الإصلاح الدِّفاعِيّ -أقصد: الدفع والصدّ الشرعي لإبقاء الدعوة إلىٰ اللَّه علىٰ بصيرة في حالها المنشود المُهيّئ لصلاح الدين، وذلك من خلال هذا الأثر الجليل:

فقد روىٰ الدارميّ في «مقدمة سننه» (١٨٨) عن الفقيه العالم الصحابي الجليل عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: «**لا يأتي عليكم زمان إلَّا وهو شرّ من الذي قبله، أمَّا إنِّي لست أعني عامًا أخصب من عام، ولا أميرًا خيرًا من أمير؛ ولكن علماؤكم، وخياركم وفقهاؤكم يذهبون، ثُمَّ لا تجدون منهم خلفًا، ويجيء قوم يقيسون الأمور برأيهم**».

قلت: قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]، فإذن، صلاح الدين والدنيا بصلاح العلماء، ووجود الرّبانيين منهم، إيجابًا وسلبًا، فإذا تحقق ذلك نكون قد وضعنا أعيينا ونظرنا وفكرنا الصحيح السليم القويم علىٰ موضع الخلل الأم المؤدِّي إلىٰ المطلوب، وإلَّا لكانت أمورنا إلىٰ زوال وهلاك، بل البُغْية الأساس: الجهاد في سبيل إصلاح الدعوة بالحجّة والبيان والدَّليل والبرهان، لا بالسيف والسّنان، لاسيما في زماننا هذا، فكل الأمة الإسلامية حالها اليوم حال الفترة المكيّة، لا الفترة المدنية، وليس ثَمَّ إلَّا نشر المفاهيم الدينية بالعقول الرشيدة الواعية المدركة بما تنصلح به هذه الأمة، بعيدًا عن الهمجية المخرّبة، والعقيدة الهدَّامة.

هذا وباللَّه التوفيق والسداد، وللَّه الأمر من قبل ومن بعد، وصلىٰ اللَّه وسلم علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد للَّه ربّ العالمين.

كتبه

الباحث الشرعيّ الدكتور عيد أبو السعود الكيَّال